

ابتهال أمام محكمة التواضع

ما أرهب التكلّم على التّواضع ! إذ إنّه كيف ، أنا العبد والتراب ، أتكلّم على الله السيّد القدير ؟ ترتعد فرائصي وأجزع من الاقتراب ، حتّى بالفكر ، من نار التّواضع المتدفّقة من العليّ ... ! أخاف ، أنا العشب اليابس بالتكبر ، أن أحترق ، وأنا الغصن الجافّ غير المثمر ، المرتفع بافتخار ، أهلع من منجل التّواضع أن يرميني في النّار التي لا تُطفأ ، حطبًا يؤجّج جحيم عممي !...

أبتهل إليك ، أيّها السيّد الرّؤوم القلب والطّويل الأناة ، أن ترحمني وتفتح قلبي وذهنني حتّى أتعلّم من تواضعك ما يفيض عليّ نِعْمًا للخلاص أنت القائل : " احمّلوا نيري عليكم وتعلّموا مني لأني وديع ومتواضع القلب فتجدوا راحة لنفوسكم ."¹

ها أنا أظفر كالأيل إلى منابع تواضعك ، أيّها المسيح ، علّني أروي ظمأ نفسي من جداولك العذبة ، وأحمد نار افتخاري بسلسبيل وداعتك

أنا أظنّ أنني أمتلك كنوز الحكمة والمعرفة ، وبمواهبني التي اقتنيتها بجهادي وأتعابي ، أستطيع أن أعلم النّاس الجهلاء ما يختصّ بك ؛ فأُنصّب نفسي عليهم معلّمًا ومرشدًا وموبّخًا . فالويل لي أنا الذي نسيت أن "كلّ عطية صالحة وكلّ موهبة كاملة هي منحدرّة من العليّ من لدنك يا أبا الأنوار... " ² . فعلمني ، يا ربّ ، أن أعلم النّاس بصمتي المتواضع العامل بالمحبّة ، لأنّ " العلم ينفخ ، أمّا المحبّة فتبني " ³ . وعلمني أن المحبّة المرصّعة بالتّواضع هي التي تخلص من اقتناها بإيمان .

¹ متى 11 : 29

² يعقوب 1 : 17

³ 1 كورنثوس 1 : 8

كم أخاف ، يا رب ، عندما أرى أنني قد ملكت ذاتي على نفسي إلهاً ، وحسبت أنني عظيم وأتعالى على سائر المخلوقات ، أغضب على ذلك وأوبخ تلك ، أظلم من أشياء وأسحق كل حي ؛ أرتفع فوق الجميع حتى أكون الكل في الكل ... ؛ فأعطني يا رب قلباً متواضعاً أطأ به أفعى الكبرياء المتربّصة في داخلي لكي أعرف أنني أدنى من كل الناس ، وأنتي "دودة لا إنسان".⁴ علمني كيف أهرب من مديح الناس لي ، وكيف أقبل تعبيرهم بفرح ؛ أغسل أقدام من ظلمتهم بدموع توبتي وأقبل يدي من سحقتهم بغضبي ... ، حتى لا أجد نفسي مقاوماً لك ، يا ملكي وإلهي ، فأخسر حياتي معك إلى الأبد .

علمني ، يا رب ، أن أخرج من أنايتي ، وأفرغ ذاتي من كل شيء حتى ، طاعة لوصيتك ، أدخل أخي الغريب والمتشرد واليتيم والأرملة أحبائك الذين ، في كبريائي ، أستحيي حتى من النظر إليهم ، وفي قسوتي أردد يدي عن خدمتهم وإغاثتهم ، وفي ظلمي أدين من حسبتهم خطاة الأرض ودون مستواي ، ساحقاً إياهم بضراوة ، وباطشاً بعزتي الخرقاء من بذلت دمك من أجل حياتهم ... !

يا رب ، يا من " أفرغ ذاته آخذاً صورة عبد ، صائراً في شبه الناس ، وإذا وجد في الهيئة كإنسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت ، موت الصليب المهين ".⁵ ، أنت حطم كبريائي المقيمة التي بفأسها سحقته إخوتي سحقاً أليماً ، حتى إذا ما تحررت منها أستطيع بعونك أن أضع نفسي مطيعاً لك حتى الموت ساكباً نفسي ذبيحة عند صليبك المحيي .

ها أنذا يا رب أسجد أمامك منسحقاً بدموع ، وأتضرع إليك يا ملكي وإلهي ألا تطرحني من أمام وجهك يا من " تقاوم المتكبرين " ، بل أسبغ علي نعمك رافعاً إياي من أحوال خطيئتي بيمينك العزيزة ، يا من " تعطي المتواضعين نعمة " ، حتى إذا ما خلصت أمجد عزتك أيها الأب والابن والروح القدس الإله الواحد إلى الأبد . آمين

⁴ مزمو 22 : 6

⁵ فيلبي 2 : 7-8